بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 14 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة الإنسان

التاريخ:06\12\2022 م كتبه: عبدالله ضيف الستري

كان في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعيرا﴾ فقدمت البحث السابق الوجه السياقي لهذه الآية المباركة، وهو أن الآيات لما ذكرت تلك النعم على الإنسان ختمت ذلك ببيان عاقبته، فإن كان شاكراً فعاقبته عيناً يشرب فيها إلى آخره، وإن كان كفوراً إنا اعتدنا للكافرين إلى آخره.

هناك توجيه آخر للترابط السياقي بين هذه الآية والآيات السابقة يرجع إلى كون هذه الآية المباركة واقعة في سياق ﴿إِنَّا هَدَيْناه﴾ فإن الهداية التي هي بمعنى إنارة الطريق تكون في بدأ المسيرة بأن يعرفه على المبدأ والخلق وواجب الوجود بالمعرفة الفطرية وبواسطة إرسال الرسل، فالهداية تكون في المبدأ لكن لا تختص به. أيضاً عندنا هداية وإنارة للطريق بما يرتبط بالمعاد والعاقبة.

فإذاً يكون الربط السياقي واضحاً، إنا هديناه السبيل في هذه الدنيا وأنرنا له الطريق لمعرفة المبدأ وما يريده المبدأ وأيضاً أنرنا له الطريق بأن بيّنا له العاقبة ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعيرا﴾.

لكل واحد من هذين التبريرين قرائنه وشواهده، ربما يأتي بعضها في أثناء البحث.

السؤال الذي يطرح في ابتداء هذه الآية في تصديرها بحرف تأكيد ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا﴾ فلماذا صدرت بحرف التأكيد؟

بناء على التبرير السياقي الأول يمكن أن نقول أن التأكيد على القاعدة، هناك بحث عندهم في علوم الأدب يسمى بالاستئناف، وهو أن يأتي كلام يكون جواباً عن سؤال اقتضته الجملة السابقة، لا يوجد سؤال حقيقي ولفظي، لكن الجملة التي تقدمت تقتضي أن يأتي هناك سؤال إلى الذهن، فتكون الجملة الواقعة بعدها جواب عن ذلك السؤال.

فيما نحن فيه إذا أخذنا بالتبرير السياقي الأول يكونوا على القاعدة، فيكون هذا من باب الاستئناف، أنه بعدما أوجدنا فيه أدوات المعرفة، جعلناه سميعاً بصيراً، وهديناه السبيل، ومع ذلك انقسم هذا المخلوق الذي خلقناه من نطفة أمشاج إلى طائفتين شاكرة وكفورة، فيأتي سؤال إلى الذهن فما هي عاقبة هؤلاء؟ فجاءت هذه الآية لتجيب عن ذلك السؤال المقدر ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرينَ﴾ وهذا النوع من الاستئناف ليس فقط يبرر لنا حرف التأكيد، بل يبرر لنا أن الآية لم تصدر بحرف العطف، لم يقل وإنا اعتدنا؛ لأن الجواب كما لا يُعطف على السؤال كذلك لا يُعطف على ما يُشعر بالسؤال، ولأجل ذلك الآية تركت حرف العطف.

مثلاً في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحيم﴾[1] وما أبرئ نفسي جاء بعدها مباشرة إن النفس لأمارة بالسوء، هنا عندما قالوا وما أبرئ نفسي كأن سائل سأل هل عدم التبرئة لأجل أن النفس أمارة بالسوء، فقال إن النفس، والإنسان المخاطب عندما يكون متردداً نؤكد له.

فيما نحن فيه أيضاً السؤال هكذا، لما بينت تلك النعم وبين انقسام الإنسان إلى فئتين، يأتي إلى الذهن أنه إحدى الفرقتين هل ستعاقب؟ والفئة الأخرى ستثاب؟ فبما أنه حصل هذا التردد في الذهن، فجاءت أداة التأكيد لتزيل هذا التردد وتؤكد المضمون.

هذا هو التوجيه لبدأ الآية بأداة التأكيد فيما لو أخذنا بالتبرير الأول للسياق.

وأما لو أخذنا بالتبرير الثاني للبحث السياقي، للوهلة أنها واقعة في سياق الهداية، كما هديناه إلى الطريق في هذه الدنيا هديناه أيضاً أنه في الآخرة يوجد عقاب وثواب. فيمكن أن يقال بأن التأكيد هنا ليس لأجل إنكار لفظي بل لأجل إنكار عملي، أن غالب الناس يعملون في هذه الدنيا كما لو كانوا من المخلدين لا يلتفتون إلى الآخرة، فهناك إنكار في مقام العمل، فجاءت الآية وأكدت ذلك.

لكن أيضاً يوجد إنكار قولي عند غالب الناس، كما يشير إلى ذلك قوله وتعالى في سورة الجاثية: ﴿وَقالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ

[1] يوسف: 53

يَظُنُّون﴾[2] فإذاً هناك من ينكر ليس فقط في مقام العمل بل حتى في مقام القول، فجاء التأكيد على القاعدة.

ثم قال بعد قوله ﴿إِنَّا أَعْتَدْنا﴾ الاعتاد هو التهيئة، هيئنا لهؤلاء، فاعتادوا الشيء بمعنى جعله حاضراً، وقوله تعالى: ﴿هذا ما لَدَيَّ عَتيد﴾[3] أي حاضر وجاهز ومهيأ، هذه الكلمة ومشتقاتها تستعمل بهذا المعنى.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعيرا﴾ السلاسل تقيد بها الأرجل، والأغلال تقيد بها الأيدي إلى الأعناق، هؤلاء في هذه الحالة الملفتة للنظر تجر أرجلهم بسلاسل وأيديهم معلقة بأعناقهم بقيود يسار بهم إلى نار مسعرة، ينقادون إليها، قادتهم أهواؤهم وشهواتهم؛ لأنهم في هذه الدنيا كان الشيطان والأهواء والغرائز تقودهم بسلاسل وقيدت إرادتهم بقيود، فأشعلوا هذه النيران في دنياهم، ولا يحصد الإنسان إلا ما زرع.

الملفت للنظر أنه إذا تتبعنا استعمالات الكلمة في القرآن الكريم ﴿أَعْتَدْنا﴾ نجد أنها جاءت في ثلاثة عشر مورداً، بتمامها كان الحديث عن العذاب إلا في مورد واحد. في سورة النساء ورد أربع موارد، قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلاَ الَّذينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَليما﴾[4] وعندما يتكلم عن الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل تختم الآية بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرينَ عَذاباً مُهينا﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

فقط في مورد واحد وهو في سورة الأحزاب ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَريما﴾ هذا المورد الوحيد في القرآن الكريم الذي استخدم فيه الاعتاد في الثواب في النعيم، أما سائر الموارد بأجمعها استعملت هذه الكلمة في العذاب والجحيم.

---

[2] الجاثية: 24
[3] ق: 23
[4] النساء: 18
[5] النساء: 37

على كل تقدير هناك سؤال يطرح في المقام، ما سر هذا اللف والنشر المشوش بين هذه الآية والآية السابقة؟ ففي الآية السابقة قدم الشاكر على الكفور، وفي هذه الآية قدم عاقبة الكفور على عاقبة الشاكر.

العلامة الطباطبائي ﷺ برر ذلك بكون عاقبة الكافر من ناحية اللفظ والتعبير أخصر، والإنسان إذا يريد يتكلم عن مطلبين مطلب قصير ومطلب طويل فيقدم المطلب القصير. فلأجل اختصار الكلام في عاقبة قدمه.[6]

[6] الميزان في تفسير القرآن، ج20، ص: 124